التّنغيم وأثره في التوجيه النحوي في كتب الحجة في القراءات السبع

م. عمار نعمه نغيمش

الخلاصة :

يدور هذا البحث عن ظاهرة التنغيم في كتب الحجة في القراءات السبع إذ وازن الباحث بين هذه الكتب بحثاً عن هذه الظاهرة التي وجدها في كتبهم ، فحاول أن يطبق ما ذكره المحدثون عن التنغيم فوجد ما ذكره المحدثون عند المتقدمين المذكورين آنفاً من مثل ان التنغيم يمكن السامع أن يجيز المعنى المراد ذلك انه يستعمل في رفع الغموض النحوي ، فضلاً عن أنه يهييء للمتكلم ان يبدي ما يعمل في نفسه من مشاعر فالباحث لا يعدم أن يجد مثل هذا الكلام عند الموجهين المذكورين سلفاً ومنها ان غياب التنغيم جعل الكلمة تتعدد الاوجه الاعرابية فيها وهذا ما لاحظه عندهم ، ومن ذلك ان الباحث وجد ما قيل عند المحدثين أيضاً من ان التنغيم يؤدي مؤدى بعض الادوات ... الخ

Abstract

The toning and its impact on the guidance in Al-Hija books in the seven readings

The research is going on the phenomenon of toning through said the authors, the researcher has tried to apply what is mentioned in Al-Hija books in the seven readings and research shows that the toning split into two categories on the one hand it's the first tune which has its impact on the level of the word and focus depending on the syntax direction of the single and the second tune at the level of sentence and reliable in many cases, semantic guidance of the sentence

المقدمة :

حظيت دراسة القراءات القرآنية باهتمام علمائنا الاقدمين لما تتضمنه من الاوجه النحوية المتعددة ، ولما تضعه بين دارسي اللغة والنحو من وجوه الاستشهاد المختلفة ، ومن هذه الكتب : كتب الحجة في القراءات السبع ، لذا وسمت بحثي بـ ((التنغيم وأثره في التوجيه النحوي في كتب الحجة في القراءات السبع)) ، وهذه الكتب هي الحجة في القراءات السبع لابن خالويه والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي وحجة القراءات لأبي زرعة ، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي ابي طالب القيسي

أن الناظر في هذه الكتب مجتمعة يجدها تذكر اوجهاً نحوية متعددة للقراءات السبعة ، اعتمد فيها المؤلفون على القواعد النحوية المقررة عند النحاة فبرزت عندهم هذه الأوجه المحتملة .

التوطئة : أثر التنغيم في تحديد معنى الكلام

يعد التنغيم من اكثر طرق الأداء اتساعاً وشمولية ، إذ إن لهُ أثراً كبيراً في نفوس السامعين ، ومتابعتهم ، وحسن إصغائهم ؛ فضلاً عن إزالة اللبس عن معنى الجملة ، وإدراك الفرق بين المعاني المتعددة ، وفهم المراد[١] .

التنغيم في اللغة هو جرس الكلام ، أو حسن الصوت ، ويذكر الخليل أن النغم هو ((جرس الكلام ، وحسن الصوت عن القراءة ونحوها))[٢] .

أما في الاصطلاح فهو الارتفاعُ والانخفاض في طبقة درجة الصوت[٣].

ويذكر أن المراد من التنغيم هو تعيين المعنى المتحصل من الكلام ، فهو يدل على أمر ما يتطلبه المعنى من السياق اللغوي[٤] فهو الوسيلة التي تنقل المعنى في التواصل لاسيما في الكشف عن مواقف المتكلم بطرق لا يمكن للمعلومات المعتمدة على الوحدات الصوتية أن تقدمها[٥].

والواقع أن المحدثين ينطلقون من نكتة مفادها أن التنغيم له وظيفتان متداخلتان : أحداهما لغوية ، فتمكن السامع أن يجيز المعنى المراد ، فهو يستعمل في رفع الغموض النحوي .

أما الوظيفة الأخرى ، فهي – أيضا – مبنية على الوظيفة الأولى ذلك أن التنغيم يهيئ للمتكلم أن يبدي ما يعمل في نفسه من مشاعر ، وبهذا يكون محملا بمعان غير لغوية متضافرة مع وظيفتها اللغوية لتمثل المعنى المراد[٦].

إن مجموعة من الأفكار تذكر هنا منها ما ذكر آنفا من الوظيفة اللغوية وغير اللغوية ، فلا يعدم القارئ لنصوص الموجهين أن يجد تطبيقا لهما عند الموجهين .

ويمكن أن يقال : إن غياب التنغيم جعل الكلمة لأن تعدد الأوجه الإعرابية فيها[٧] ، ذلك انه خاص باللغة المنطوقة[٨] ، وفيما يأتي نذكر عدة نقاط تطبيقية للتنغيم عند الموجهين الأربعة:

١– ولعل الرسم الكتابي يجيز أن تؤدى القراءة بصورتين ، فيتوقف معناها الدلالي والنحوي على طبيعة أدائها ، فيتعدد الوجه النحوي بتعدد نمط الأداء ومن ابرز الأمثلة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة / ٢١٩] قُرئت (**العفو**) بالنصب والرفع[٩].

اتفق الموجهون على أن (ماذا) تستعمل على وجهين – هنا – احدهما أن تكون (ما) مع (ذا) اسما واحدا ، والآخر : أن يكون (ذا) بمنزلة الذي . قال ابن خالويه : (فمن رفع جعل (ذا) منفصلة من (ما) ، فيكون بمعنى الذي ، فكأنه قال : ما الذي ينفقون ؟ ، فقال : الذي ينفقون

العفو ، فترفعه بخبر الابتداء...)[١٠].جاء في الحجة لأبي علي : (اعلم أن قولهم (ماذا) تستعمل على وجهين : احدهما أن يكون (ما) مع (ذا) اسما واحدا ، والآخر : أن يكون ذا بمنزلة الذي)[١١] . وقال أيضا : ((وأما وجه قول من رفع ، فقال : (قل العفو)، فان ذا تجعل بمنزلة (الذي) بعد ما ، ولا تجعل معها بمنزلة اسم واحد))[١٢]

أما نصب العفو ، فيكون على جعل ماذا كلمة واحدة ، ونصب العفو ب (ينفقون) ، كأنه قال: ينفقون العفو ، فماذا بمنزلة (ما) كما انك تقول : ما ينفقون[١٣] ؟ ويبدو أنهم اعتمدوا على ما ذكره سيبويه في باب إجرائهم (ذا) وحده بمنزلة الذي ، جاء في الكتاب : ((وليس يكون كالذي إلا مع (ما) ، (ومن) في الاستفهام ، فيكون (ذا) بمنزلة الذي ، ويكون (ما) حرف استفهام ، وإجرائهم إياه مع (ما) بمنزلة اسم واحد ، أما إجراؤهم إياه (ذا) بمنزلة الذي ، فهو قولك : ماذا رأيت ؟ فيقول متاع حسن .... وأما إجراؤهم إياه مع (ما) بمنزلة اسم واحد فهو قولك : ماذا رأيت ،فتقول : خيرا ، كأنك قلت : ما رأيت ....))[١٤]. ومن ذلك – أيضا – أنَّ كلمة (السحر) من قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس/٨١] قرئت بالاستفهام وتركه[١٥].

ويبدو أنَّ الخلاف الحاصل بين القراءتين مداره (ما) الواردة في النص القرآني؛ ذلك أنهم وجهوها بتوجيهين هما : أنْ تكون استفهامية ، والأخرى : أن تكون موصولة . فيذكر ابن خالويه أنّ حجة من استفهم ((انه جعل (ما) فيه بمعنى : أيُّ شيء جئتم به السحر هو ؟ دليله قوله تعالى : (**أَسحر هذا**) [يونس /٧٧] ، وهي ألف التوبيخ بلفظ الاستفهام ، لأنهم قد علموا انه سحر ، والحجة لمن ترك الاستفهام انه جعل (ما) بمعنى الذي ، يريد : الذي جئتم به السحر ، و(ما) مبتدأة وجئتم : صلة (ما) ، وبه : عائدها و: (السحر) خبر المبتدأ ؛ فما ، والذي – ها هنا – بمعنى))[١٦] .

قال أبو علي : (((ما) ترفع فيه بالابتداء ، و(**جئتم به**) في موضع الخبر ، والكلام استفهام ، يدلك على ذلك استقلال الكلام بقوله : (**جئتم به**) ، ولو كانت موصولة احتاجت إلى جزء آخر، فأمّا وجه الاستفهام مع علم موسى انه سحر ، فإنه على وجه التقرير ... ومن قال : (**مَا جِئْتُم بِهِ قُ**) [يونس /٨١] ، كان (ما) في قوله : ((**ما جئتم**)) موصولا و (**جئتم به**) الصلة ... ومما يقوي هذا الوجه ما زعموا أنه في حرف عبد الله : (ما جئتم به سحرا))[١٧].

ولا يختلف أبو زرعه عما تقدم من القول ، إذ ذكر أن (((ما) بمعنى : (أي) والتقدير : أيّ شيء جئتم ؟ آلسحر ؟ ، هو استفهام على جهة التوبيخ ؛ لأنهم قد علموا انه سحر ، فقد دخل

استفهام على استفهام ، فلهذا يقف على قوله : (ما جئتم به) ثم يبتدئ (السحر) بالرفع ...))[١٨].

أمّا من ترك الاستفهام فعلى معنى : ((الذي جئتم به السحر))[١٩] ، والأمر نفسه عند مكي ، فقال ((وحجة من مد انه جعل (ما) استفهاما من(ما) فلحقته ألف الاستفهام ... ومعنى الاستفهام في هذه القراءة ، ليس على معنى الاستخبار؛ لان موسى (صلى الله عليه وسلم) قد علم ، وأيقن أن الذي جاءوا به سحر ، لكنه استفهام في اللفظ ، ومعناه : التقرير ... وحجة من قرأ بغير مد انه جعل (ما) في قوله : (ما جئتم به) بمعنى الذي ، في موضع رفع بالابتداء ، و (جئتم به) صلة (ما) ، والسحر خبر الابتداء))[٢٠] .

والمطلع على ما ذكره أبو عبيدة يجده يوجه (ما) على أنها موصولة وذكر ان قوما يزيدون ألف الاستفهام في آلسحر[٢١] . والواقع ان ما قيل من كلام ذكره الفراء ، ولاسيما عندما جعلوا القراءة باستفهاميين ، إذ قال: ((وكان مجاهد وأصحابه يقرأون : ما جئتم به السحر : فيستفهم ، ويرفع السحر من نية الاستفهام ، وتكون (ما) في مذهب (أي) ، كأنه قال أي شيء جئتم به السحر هو ...))[٢٢].

إنّ الموجهين اعتمدوا في هذا التوجيه على مسائل متعددة وهي : الاختلاف في (ما) ، فالملاحظ أنَّهم انتبهوا إلى ما يؤديه الكلام المنغّم ، والدليل على ذلك أنّهم جعلوا (ما) بمعنى : أي ، ولا شك انّ الاستفهام يختلف عن الاسم الموصول .

والأمر الآخر هو النظر إلى تمام الكلام ، واستقلاله عمّا بعده ولا سيما عند أبي علي ، ومن اخذ عنه . على حين أنَّ الاسم الموصول لا يتم بنفسه ، وإنمّا يحتاج إلى كلام آخر تصله به ليتم ؛ فيصير اسما ، فإذا ما تم كان حكمه حكم سائر الأسماء التامة[٢٣] . ومنها أنَّ المراد من الاستفهام – هنا – التوبيخ أو التقرير ، وهذا جاء من النظر إلى معنى الكلام ، فمعنى الآية الكريمة ، وتحليلها النحوي يتوقف على طبيعة الأداء ، فالأداء التنغيمي كان بنغمة مستوية أفادت التوبيخ أو التقرير ، فيختلف عما يؤديه الاسم الموصول من معنى .

٢– إنَّ ثمة مقولة يذكرها المحدثون مفادها إنَّ النغمة – في المعنى – قد تؤدي مؤدّى الصيغة في الصرف ، فالصيغة الصرفية التنغيمية لها منحنى خاص بالجملة، مما يعين على الكشف عن معناها اللغوي[٢٤] . على أنَّ القارئ للنصوص لا يعدم أنْ يجد مثل هذا الكلام ومنها قراءة : (يستطيعُ ربَّك) بالتاء والنصب[٢٥] ، في قوله تعالى :﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة/١١٢] .

يتضح أنَّ الجميع متفق على أنَّ من قرأ بالتاء ، والنصب فإنه يعتمد على تقرير محذوف في السؤال ، وهو : هل تستطيع سؤال ربك ؟ أو هل تستطيع يا عيسى أنْ تسال ربك ؟ . قال ابن خالويه : ((والحجة لمن نصب انه أراد : هل تستطيع سؤال ربك ؟ ثم حذف السؤال ، وأقام (ربك) مقامه ، كما قال : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف /٨٢] ، يريد أهل القرية ، ومعناه : سل ربَّك أنْ يفعل بنا ذلك فانه عليه قادر))[٢٦] .جاء في الحجة لأبي علي : ((وجه قراءة الكسائي (تستطيع) بالتاء ، أنَّ المراد : هل تستطيع سؤال ربك ، وذكروا الاستطاعة في سؤالهم له لا لأنَّهم شكّوا في استطاعته ، ولكن كأنهم ذكروه على وجه الاحتجاج عليه منهم ؛ كأنهم قالوا : انّك تستطيع فما يمنعك؟ ...))[٢٧] .وذكر أبو زرعة أنَّ أهل البصرة يقولون: إنَّ المعنى : ((هل تستطيع سؤال ربك ،فحذف السؤال ، وألقى إعرابه على ما بعده فنصبه ، كما قال ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ، أي : أهل القرية))[٢٨] .ويُذكر أنَّ الاخفش سبقهم إلى هذا الرأي قائلا : ((وهو جائز كأنه اضمر الفعل ، فأراد هل تستطيع أن تدعوا ربَّك أو هل تستطيع ربك أنْ تدعوا ، فكل هذا جائز))[٢٩] .والحق أنَّ للأداء علاقة بذلك ، ولعلّ الموجهين انتبهوا إلى ما يؤديه التركيز على كلمة من الكلمات في الجملة ، لذا وجهوه بمثل هذا التوجيه ، ومن ثمّ أنَّ التركيز في الكلام – على الفعل (تستطيع) أعطى الجملة معنى آخر ، قال مكي : ((وحجة من قرأ بالتاء أنه أجراه على مخاطبة الحواريين لعيسى وفيه معنى التعظيم للرب جل ذكره على أنْ يستفهم عيسى عن استطاعته إذ هو تعالى مستطيع لذلك فإنما معناه : هل تفعل ذلك ...))[٣٠] .

٣- ومنها أنَّ القارئ يجد – من النظر إلى بعض النصوص – أنَّ التنغيم يؤدي مؤدى بعض الأدوات ، ولاسيما في حذف حرف النداء وحذف الجواب ، فيُستبدل الحرف بقيمة تعبيرية ، وهذه القيمة هي التنغيم ، ومثل هذه الإشارة يذكرها د . محمد حماسة الذي ذكر أنَّ التنغيم ربما يكشف عن البنية المفترضة ، فمعرفتها تساعد على تفسيرها تفسيرا صحيحا في اغلب الأحيان ، فهو لا ينشيء علاقة نحوية ليست موجودة ، ولكنه يختار العلاقة النحوية المستقرة ، فيظهر تأثيرها في التفسير[٣١] .لا شك أنَّ الموجهين – هنا – قد وجّهوا بعض القراءات بالطريقة نفسها التي ذُكرت آنفا ؛ ذلك أنّهم اعتمدوا البنية المفترضة في توجيه بعض القراءات .ومن ذلك ما قيل عن القراءة بالنصب في قوله تعالى: قَالَ ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام / ٢٣] . فقد قُرئت (ربِّ) بالنصب[٣٢].

قال ابن خالويه :((والحجة لمن نصب : أنَّه جعله منادى مضافا ، يريد : يا ربنا: ما كنّا مشركين ؛ لأنَّ الله تعالى قد تقدّم ذكره ، فنادوه مستغيثين))[٣٣] .جاء في الحجة لأبي علي : ((ومن قال :﴿

﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا ﴾ ، فصل بالاسم المنادى بين القسم والمقسم عليه بالنداء ، والفصل به لا يمتنع ... لكثرة النداء في الكلام))[٣٤].

أمّا أبو زرعة فيعتمد على سياق الكلام السابق في توجيه القراءة ليوافق ابن خالويه – هنا – فالآية ابتدأت بمخاطبة الله إياهم :((إذْ قال للذين أشركوا : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾ [٢٢]، فجرى جوابهم إيّاه على نحو سؤاله لمخاطبتهم إيّاه ، فقالوا :(والله ربنا) ، بمعنى والله يا ربنا ما كنّا مشركين ، فأجابوه مخاطبين له كما سألهم مخاطبين))[٣٥].

ويذهب مكي إلى ما ذهب إليه أبو علي ، بيد أنه يوافق ابن خالويه من أنَّ القراءة بالنصب حسنة ؛ لأنَّ فيها معنى الخضوع والتضرع[٣٦] .

٤– واضح أنَّ القراءة توحي للقارئ – كما ذُكر سلفا – من أنَّ التنغيم يهيئ للمتكلم أنْ يبدي ما يعمل في نفسه من مشاعر ، فصدى هذه المقولة واضح ، ولاسيما ما ذكره ابن خالويه ، والقيسيّ ، أعني : أنَّ القراءة بالنصب حسنة لما فيها من التضرع والاستغاثة .ومثله أيضا ما قرئ بالتاء والنصب في (ترحمنا ربَّنا)[٣٧] قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف/ ١٤٩] . جاء في الحجة لابن خالويه : ((... فالحجة لمن قرأ بالتاء : أنَّه جعل جعلها دليلاً لخطاب الله تعالى ؛ لأنَّه حاضر، وإن كان عن العيون غائبا مريداً النداء ...))[٣٨].

أمّا أبو علي ، فيوجه القراءة على حذف حرف التنبيه إذْ قال : ((ومن قرأ: (لئن لم ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا) جعل (تغفر لنا) للخطاب ، وفيه ضمير الخطاب و(ربَّنا) نداء ... وحذف حرف التنبيه معه ؛ لأن عامة ما في التنزيل من ذلك يُحذف حرف التنبيه منه ...)[٣٩].

في حين اعتمد أبو زرعة على ما في قراءة أُبيّ ،فقال: ((... بالنصب مريداً النداء ، أي: يا ربنا ، (وتغفر لنا) بالتاء ، وحجتها أنَّ في حرف أُبي : (قالوا ربنا لئن لم ترحمنا وتغفر لنا)))[٤٠].

ويُستشف من قول مكي التغيير في الأداء القرآني إذ ذكر أنَّ القراءة بالتاء في الفعلين ، ففيها ((معنى الاستغاثة والتضرع والابتهال في السؤال والدعاء ، وبنصب (ربَّنا) على النداء وهو أيضا أبلغ في الدعاء والخضوع... ولولا أنَّ الجماعة على الياء والرفع لاخترت القراءة بالتاء والنصب لما ذكرت من صحة معناه في الاستكانة والتضرع))[٤١] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ [يوسف /٣١] إذ قرئت (حاشَ) بترك الألف ، واثباتها وصلاً ووقفًا[٤٢] ذكر ابن خالويه أن من ((اثبتها : أنه اخذه من قولك : حاشى يحاشي ، والحجة لمن حذف انه اكتفى بالفتحة

من الألف وحذفها ، واتبع فيها خط السواد))[٤٣] ومن يطلع على ما ذكره ابو علي يجده يشير الى فعلية هذه الكلمة فالقارىء يجد اشارات لطيفة توضح أثر الاداء في القراءة منها : انه نقل عن ابي عبيده[٤٤] ان العرب تقول:((حاشَ ، وحاشا لله ، يطلقونها وهي تبرئة واستثناء))[٤٥] ، ومنها أنها لو كانت ((فعلاً من هذا الذي ذكرنا ، فلابد له من فاعل ، وفاعله : يوسف ، كأن المعنى : بعد من هذا الذي رمي به لله ، أي : لخوفه ومراقبة أمره))[٤٦] ومنها ان من قرأ بها في الوصل ((فأنه جاء به على التمام والأصل))[٤٧] وقد اعتمد ابو زرعة على ما ذكره اليزيديّ في من قرأ بالألف إذ قال : ((وحجته ذكرها اليزيديّ ، فقال : يقالُ حاشاك وحاشا لك ، وليس احد من العرب يقول حاشك ولا حاشَ لك))[٤٨] وقد حكم رسم المصحف في قراءة من اسقط الألف ، فاعتمد على وسلة اخرى ، فقال : ((وحجتهم انها مكتوبة في المصاحف بغير ألف ، حكى ابو عبيد عن الكسائيّ : أنها في مصحف عبد الله كذلك ، وأصل الكلمة التبرئة والاستثناء ...))[٤٩] أما مكي فكلامه لا يختلف عما جاء عند ابي علي ، ولاسيما في ذكر فعلية هذه الكلمة ، إذ إنه يوافقه من أنها جيء بها تنزيهاً للكلام ، لأن النبي يوسف (عليه السلام) بعد عن هذا الفعل ، وقد اعتمد على وسيلة ترجح ما قاله كما فعل ابو زرعة من قبل لذا اعتمد على قراءة عثمان ، وابن مسعود (رضى الله عنهما)[٥٠] بيد أن من أثبت الألف في الوصل أنه اتى بها على الأصل ، وحذف الألف في الوقف لاتباع المصحف [٥١] .

إن الجميع يتفق على أن القراءة بالحذف هي إتباع لما في المصحف ، فاتفقوا على أن الكلمة يؤتى بها للتنزيه والاستثناء نقلا عن ابي عبيده ، وهذا يفيد في إعطائها قيمة تمييزية للأداء ،ففيه تنزيه للنبي يوسف (عليه السلام) ، وهنا يكتسب التنغيم دوراً مهماً في انواع الفعل الانساني التي ذكرها المحدثون كالتقرير ، والغضب ، والرفض ، والقبول[٥٢] ومنها القراءة بالاستفهام وتركه في (أإنَّك)[٥٣] في قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾ [يوسف/٩٠] . قال ابن خالويه ((فالحجة لمن حقق أنَّ الأولى للاستفهام ، والثانية همزة إنَّ فأتى بهما على أصلهما... والحجة لمن اخبر ولم يستفهم : إجابته لهم بقوله: (أنا يوسف) ، ولو كانوا مستفهمين لأجابهم بنعم أو لا ، ولكنهم أنكروه فأجابهم محققا))[٥٤] ومن اللافت للنظر أنَّ القارئ يجد أبا علي يختلف في التوجيه عمّا ذكره ابن خالويه ، إذْ قال : ((يدل على الاستفهام قوله: أنا يوسف ، فإنما أجابهم عمّا استفهموا عنه ، وزعموا أنّ في حرف أُبيّ : (أَوَ أنت يوسف) ؛ فهذا يقوي الاستفهام))[٥٥] .

وزاد قائلا أنَّ الاخفش قال[٥٦] ((في قوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ [الشعراء/٢٢]، إنَّه على الاستفهام ؛ كأنَّه : أوَ تلك نعمة ؟ فيجوز أن يكون قول ابن كثير على هذا ؛ فتكون القراءتان – على هذا – متفقتين ، وقلّما يُحذف حرف الاستفهام))[٥٧].

أمّا أبو زرعة فيذكر أنَّ من كسر الهمزة فعلى الخبر ، أمّا من قرأ بهمزتين فقد جاء بها على الأصل ، فأبو زرعة – هنا – يذهب إلى ما ذهب إليه ابن خالويه ، فكلاهما ذكر أنَّ من قرأ بهمزتين ، لذا جيء بهما على الأصل ، فهو يرى في هذا الوجه أنَّ الهمزة حرف من حروف المعجم ، لذا صح الجمع بينهما نحو ما يجتمع في الكلمة حرفان متماثلان[٥٨].

أمّا مكي فيوجه القراءتين باعتماد المعنى ، إذْ قال ((بهمزة واحدة على الخبر ، وقرأ الباحثون بهمزتين على لفظ الاستفهام ... وحجة من قرأه على الخبر أنّهم لما عرفوا يوسف ، وتيقنوا أنّه هو ، أتوا بـ (أنَّ) التي لتأكيد ما بعدها ، واستغنوا عن الاستخبار ؛ لأنه شيء قد ثبت عندهم ، فلا معنى للاستخبار عنه))[٥٩]. أمّا من قرأ بهمزتين فإنّه ((أتى بلفظ الاستفهام الذي معناه الإلزام ، والإثبات لم يستخبروا عن أمر جهلوه ، وإنّما أتوا بلفظ يحققون به ما صح عندهم من انّه هو يوسف... وكما قال لوط لقومه ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ [الأعراف/٨٠] ، ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ [الأعراف / ٨١] ، بلفظ الاستفهام ، الذي معناه الإلزام ، والإثبات لما فعلوا لم يستخبرهم عن ذلك ؛ لأنّه أمر قد علمه ، وتيقنه من فعلهم))[٦٠] ويمكن أن يعلق على ما ذُكر الآتي:

واضح مما تقدم أنَّ الموجهين قسموا الكلام على الخبر والإنشاء ولعلهم استفادوا ممن سبقهم كالزجّاج[٦١] ، والنحّاس[٦٢] ، ومنها : النظر إلى سياق الكلام ، كما هو الحال عند أبي علي ، وأبي زرعة ، ومكي ؛ ذلك أنّهم نظروا إلى الضمير الذي تكلم به يوسف(عليه السلام) ، يزاد على أنّهم نظروا إلى الإجابة عن الاستفهام ، فكل هذا يشير إلى طريقة الأداء المتمثل بالتنغيم ، ويمكن أنْ يقال : إنَّ إجابة يوسف (عليه السلام) هي – بحد ذاتها – تنغيم ، وقد نبه عليه المتقدمون ومن ينظر إلى ما ذكره ابن خالويه فانه يلمح –في كلامه– اثر الأداء ، ولاسيما عندما ذكر أنَّهم أنكروه ، فأجابهم محققا ويبدو أنَّه حصر الاستفهام بالإجابة عنه بحرف الجواب ، فهو غلب المرجعية النحوية على النص ، على حين رجَّح الآخرون الإجابة بالضمير على أنَّ الكلام السابق استفهام والواقع أنَّ أبا علي أراد أنْ يعزز القراءة بالاستفهام بما قرأه أُبيّ ، أو ما هو موجود في مصحفه ، فاستعان بوسيلة توجيه أخرى تعتمد أيضا – على قرينة لفظية ، وهي – أيضا – تسترعي انتباه المتلقي أو تحيله إلى أنَّ ثمة تنغيما في القراءة .والحقيقة أنَّ النظر إلى أحرف الجواب هي الأخرى تحمل في طياتها معنى الأداء المنغّم .والواقع أنَّ القيسي ينطلق من رؤية أخرى ، هي معنى الكلام ، لأنَّ

التركيز على معنى (أنَّ) المؤكدة يعطي كلاماً مميزاً يثير انتباه المتلقي أحيانا إلى شيء آخر ، لذا ذكر أنَّهم قد استغنوا عن الاستفهام فهي شيء ثبت عندهم ، ويبدوا أنَّه يرجح معنى التقرير في قراءة من قرأ بالاستفهام ، وهذا المعنى يعطي دلالة أخرى .

الخـــاتمة

فيما يأتي جملة من النقاط يمكن أن تذكر هنا :-

١- اتضح ان الموجهين ذكروا ما قاله سيبويه ومن جاء بعده من أمثلة صناعية ، بيد أن الفرق بينهم أنهم استغنوا عن تلك الأمثلة بالقراءات ، فطبقوا ما في تلك الأمثلة من قواعد على القراءات .

٢- يبدو مما عرض أن التنغيم ينقسم على قسمين من جهة أثره ، الأول تنغيم له أثر على مستوى المفرد (الكلمة) ، ويتركز اعتماداً عليه التوجيه الإعرابي للمفردات كما هو ملاحظ في توجيه قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ ﴾ ، والثاني : تنغيم على مستوى الجملة ، ويعتمد عليه في كثر من الأحيان التوجيه الدلالي للجملة دون أن يكون هناك تأثير كبير للتوجيه الإعرابي لها وهذا ما يتضح في قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ ﴾ واعتماداً على ما ذكر يتبين أن له وظيفة أخرى ، وهي الوظيفة النحوية الدلالية ، فيكون المكون الدلالي موجهاً رئيساً للتركيب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ ﴾ .

٣- اتضح من البحث ان التنغيم عند الموجهين عدّ وسيلة استبدالية عن الأدوات وهذا ما وجدناه في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا ﴾

الهوامش :

(١) ينظر : الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى : د. حمدان ابو عاصي : ٦٧.

(٢) العين : الفراهيدي (نغم) وينظر : تاج اللغة وصحاح العربية : الجوهري (نغم) .

(٣) ينظر : مناهج البحث في اللغة تمام حسان ١٦٤ .

(٤) ينظر : ظاهرة اللبس في العربية : د. مهدي اسعد : ٢٢ ، والتحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة : محمود عكاشة: ٤٩ .

(٥) ينظر نظرية النحو العربي في ضوء تعدد أوجه التحليل النحوي : د. وليد حسين : ٣٨٧ .

(٦) ينظر ظاهرة اللبس في العربية : ٢٢ ، ودراسات في اللسانيات العربية : د. عبد الحميد السيد :٦٠

(٧) ينظر تعدد التوجيه النحوي : د. محمد حسنين صبرة : ٢٥٦ ، ونظرية النحو العربي في ضوء تعدد أوجه التحليل النحوي : ٣٩١

(٨) ينظر : اللغة معناها ومبناها : تمام حسان : ٢٢٨.

(٩) ينظر : التيسير في القراءات السبع : الداني : ٨٠ .

(١٠) الحجة في القراءات السبع : ٩٦ .

(١١) الحجة للقراء السبعة : ٢ / ٣١٦ .

(١٢) المصدر نفسه : ٢ / ٣١٨ .

(١٣) ينظر : المصدر نفسه .

(١٤) كتاب سيبويه : ٢ / ٤١٦ –٤١٧ –٤١٨ ، وينظر : معاني القران للأخفش ٣٠٩ ، ومعاني القران وإعرابه للزجاج : ١ / ٢.

(١٥) ينظر السبعة في القراءات : ابن مجاهد : ٣٢٨ .

(١٦) الحجة في القراءات السب : ١٨٣ .

(١٧) الحجة للقراء السبعة : ٤ / ٢٩٠ – ٢٩٢ .

(١٨) حجة القراءات : ٣٣٥ .

(١٩) المصدر نفسه .

(٢٠) الكشف عن وجوه القراءات : ٥٢١/١.

(٢١) مجاز القران : ١ / ٢٨٠ .

(٢٢) معاني القران : ١ / ٤٧٥ .

(٢٣) ينظر : شرح المفصل : ابن يعيش : ٢ / ١٠١ .

(٢٤) ينظر : أسلوبا النفي والاستفهام: خليل احمد عمايرة : ٣٠ .

(٢٥) ينظر : معاني القراءات ٣٤٣/١ .

(٢٦) الحجة في القراءات السبع : ١٣٥ .

(٢٧) الحجة للقراء السبعة ٣ /٢٣٧ ، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٢٣ .

(٢٨) حجة القراءات : ٢٤١ .

(٢٩) معاني القران : ٤٠٣ .

(٣٠) الكشف عن وجوه القراءات : ١ / ٤٢٣ .

(٣١) ينظر : النحو والدلالة : محمد حماسة : ١٥١ .

(٣٢) ينظر: التبصرة في القراءات السبع : مكي ابن أبي طالب :٤٩١ .

(٣٣) الحجة في القراءات السبع : ١٣٧ .

(٣٤) الحجة للقراء السبعة : ٣ / ٢٩٢ – ٢٩٣ .

(٣٥) حجة القراءات : ٢٤٤ .

(٣٦) ينظر : الكشف عن وجوه القراءات : ١ / ٤٢٧ .

(٣٧) ينظر : الإكتفاء في القراءات السبع المشهورة ، ابو الطاهر إسماعيل بن خلف الإنصاري : ١٣٨.

(٣٨) الحجة في القراءات السبع : ١٦٤ .

(٣٩) الحجة للقراء السبعة : ٤/٨٨- ٨٩ .
(٤٠) حجة القراءات : ٢٩٦ .
(٤١) الكشف عن وجوه القراءات : ١/٤٧٧ .
(٤٢) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ٤/ ٤٢٢ .
(٤٣) الحجة في القراءات السبع : ١٨٣ .
(٤٤) ينظر : مجاز القرآن : ١/ ٣٠١ – ٣٠٢ .
(٤٥) الحجة للقراء السبعة : ٤/٤٢٢ .
(٤٦) الحجة للقراء السبعة: ٤/٤٢٣ .
(٤٧) المصدر نفسه : ٤/ ٤٢٤ .
(٤٨) حجة القراءات : ٣٥٩ .
(٤٩) المصدر نفسه : ٣٥٩ .
(٥٠) ينظر : الكشف عن وجوه القراءات : ٢/ ١٠ .
(٥١) ينظر : المصدر نفسه .
(٥٢) ينظر : علم اللسانيات الحديثة : عبد القادر عبد الجليل : ٣٧٦ .
(٥٣) ينظر : العنوان في القراءات السبع ، أبو الطاهر الأنصاري : ١١١ .
(٥٤) الحجة في القراءات السبع : ١٩٨ .
(٥٥) الحجة للقراء السبعة : ٤/٤٤٧ .
(٥٦) ينظر : معاني القرآن : ٥٤٨ .
(٥٧) الحجة للقراء السبعة : ٤/٤٤٧ .
(٥٨) ينظر : حجة القراءات : ٣٦٣ ، ٨٦ .
(٥٩) الكشف عن وجوه القراءات : ٢/١٤ .
(٦٠) الكشف عن وجوه القراءات ، وفي النص المصحفي بدون همزه تسبق إن .
(٦١) ينظر : معاني القرآن وإعرابه : ٣/ ١٠٥ .
(٦٢) ينظر : إعراب القرآن : ٤٥٠ .

المصادر والمراجع

١- اسلوبا النفي والاستفهام : خليل احمد عمايره ، مطبوعات جامعة اليرموك د. ط ، الأردن ، د. ت .
٢- إعراب القرآن : أحمد بن محمد النحاس (٣٣٨هـ) ، تح : د. زهير غازي زاهد ، عالم الكتب ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٥ م .
٣- الاكتفاء في القراءات السبع المشهورة : أبو الطاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري (ت ٤٥٥هـ) ، تح : د. حاتم صالح الضامي ، دار نينوي للنشر والتوزيع ، ط١ ، سوريا ، ٢٠٠٥م .

٤- التبصرة في القراءات السبع : مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) ، تح : محمد غوث الندوي ، الدار السلفية ، ط٢ ، الهند ، ١٩٨٢م .
٥- تعدد التوجيه النحوي ، مواضعه ، اسبابه ، نتائجة ، د .محمد حسنين صبرة ، دار غريب للطباعة والنشر ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .
٦- التيسير في القراءات السبع : أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت٤٤٤هـ) ، تح : اوتو تريزل ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٤م.
٧- الحجة في القراءات السبع : ابن خالويه ، تح : د. عبد العال سالم مكرم ، عالم الكتب ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٧م .
٨- حجة القراءات : أبو زرعة عبد الرحمن بن زنجلة (ت في حدود ٤٠٣هـ) ، تح : سعيد الافغاني ، مؤسسة الرسالة ، ط٥ ، بيروت ، ١٩٩٧م.
٩- الحجة للقراء السبعة : أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي (ت ٣٧٧هـ) ، تح : بدر الدين قهوجي ، ورفيقه ، دار المأمون للتراث ، ط١ ، دمشق ، ١٩٨٤م.
١٠- دراسات في اللسانيات العربية : د . عبد الحميد السيد ، دار حامد للنشر والتوزيع ، ط١ ، عمان ، الاردن ، ٢٠٠٤م
١١- السبعة في القراءات : أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) ، تح : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٢ ، مصر ، ١٤٠٠هـ .
١٢- شرح المفصل : موفق الدين بن يعيش (ت ٦٤٣هـ) ، تح : أحمد السيد سيد أحمد ورفيقه ، المكتبة التوفيقية ، د. ط ، مصر ، د.ت .
١٣- ظاهرة اللبس في العربية : جدل التواصل والتفاصل : د. مهدي اسعد عرار ، دار وائل للنشر ، ط١ ، الأردن ، ٢٠٠٣م.
١٤- علم اللسانيات الحديثة ، نظم التحكم وقواعد البيانات : د. عبد القادر عبد الجليل ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، ط١ ، عمان ، ٢٠٠٢م .
١٥- العنوان في القراءات السبع : ابن خلف الانصاري ، تح : د. زهير غازي ورفيقه ، مؤسسة المنار العراقية ، ط٢ ، النجف الأشرف ، ١٩٩٥م .
١٦- كتاب سيبويه : عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ) ، تح : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، ط١ ، بيروت ، د.ت .
١٧- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها : مكي بن ابي طالب ، تح : د. محيي الدين رمضان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، د.ط ، دمشق ، ١٩٧٤م.
١٨- اللغة معناها ومبناها : د. تمام حسان ، عالم الكتب ، ط٥ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٦م.
١٩- مجاز القرآن : أبو عبيده معمر ابن المثنى (ت ٢١٠هـ) ، تعليق : د. محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، د. ط ، القاهرة ، ١٩٥٤م.

٢٠- معاني القراءات : محمد بن احمد الازهري (ت ٣٧٠هـ) ، تح : عبد مصطفى درويش ورفيقه ، دار المعارف ، ط١ ، مصر ، ١٩٩٣م.
٢١- معاني القرآن : سعيد بن مسعدة الأخفش (ت ٢١٠هـ) ، تح : د. عبد الأمير الورد ، عالم الكتب ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٣م.
٢٢- معاني القرآن وإعرابه : ابراهيم بن السري (ت ٣١١هـ) ، تح : د. عبد الجليل عبده شلبي ، دار الحديث ، د.ط ، القاهرة ، ٢٠٠٤م.
٢٣- النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي : محمد حماسة عبد اللطيف ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، د. ط ، القاهرة ، مصر ، ٢٠٠٦م.
٢٤- نظرية النحو العربي في ضوء تعدد أوجه التحليل النحوي : د. وليد حسين ، دار فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة ، ط١ ، عمان ، الاردن ، ٢٠٠٩م .